أنثروبولوجية الصورة الحكائية في الأدب الشعبي الجزائري: المرأة أنموذجا

the anthropology of the narrative image in Algerian popular literature: the woman as a model

L'anthropologie de l'image narrative dans la littérature populaire algérienne: la femme comme modèle

د.يمينة ناضر

جامعة البليدة 2 -علي لونيسي-الجزائر

تاريخ الإرسال: 07-07-2018 - تاريخ القبول: 08-02-2021 - تاريخ النشر: 27-02-2023

ملخص

يعرف الأدب الشعبي، بأنه كلّ الفنون القَولية التي أبدعتها الجماعة الشعبية، و يتضمن ضمن مكوناته، الحكايات الشعبية التي يعتقد الكثير أنها خرافات خيالية، بَيد أنّها تعكس في مكنونها حياة الشعوب وتعبر عن أفكارهم، كما تحمل قيما ومعطيات اجتماعية، تربوية، نفسية وتاريخية. تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن الصورة المقدمة لشخصية المرأة في الأدب الشعبي، في الحكاية الشعبية خصوصا، داخل المجتمع الجزائري، أي كيف صيغت فنياً التصورات الموجودة حول المرأة داخل المجتمع الجزائري (منطقة تيسمسيلت أنموذجا)، متفاعلة بالمظاهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية. توصلت الدراسة إلى أن الحكاية الشعبية قد تضمنت عدّة جوانب من شخصية المرأة، إذ تَبين أنّه كان لها دور هام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من خلال علاقتها بأفراد أسرتها والمجتمع، وأشارت نتائج الدراسة كذلك، إلى أنّ المرأة قد ظهرت كشخصية متميزة، استطاعت بها أن تعبّر عن احتياجاتها النفسية، وإبراز مكانتها.

الكلمات الدالة: الأدب الشعبي؛ الحكاية الشعبية؛ شخصية المرأة؛ تحليل أنثروبولوجي.

Abstract

The aim of this study is to investigate the image of the woman's personality presented in popular literature, particularly in the folk tale, within the Algerian society, i.e., how the perceptions about women in the Algerian society (in Tissemsilt region) have been worded artistically, interacting with social, economic, cultural, and psychological aspects. Popular literature is the most important component of the popular heritage. It is known as all the folk oral arts produced by a popular group. Popular literature includes, inter alia, folk tales that many believed

to be myths and legends. However, the folk tale reflects people's lives and expresses their ideas. It carries values and social, educational, psychological and historical data.

Keywords: popular literature; folk tales; woman personality; anthropological analysis.

Résumé

La littérature populaire tous les arts discursifs oraux produits par un groupe populaire. Elle comprend également les contes populaires que beaucoup considèrent comme des mythes et légendes, bien qu'ils reflètent la vie des gens, expriment leurs pensées et véhiculent des valeurs et des métadonnées sociales, éducatives, psychologiques et historiques. L'objectif de cette étude est de d'analyser l'image de la personnalité de la femme dans la littérature populaire, dans le conte populaire en particulier, dans la société Algérienne. Il sera question de savoir, comment les perceptions des femmes au sein de la société Algérienne (région de Tissemsilt comme modèle) sont formulées en rapport avec les aspects sociaux, économiques, culturels et psychologiques. L'étude a révélé que le conte populaire a inclus plusieurs aspects de la personnalité de la femme. Dans ces contes, elles jouent un rôle important dans la vie sociale, économique et culturelle, grâce aux relations qu'elles nouent avec les membres de leur famille et la société à laquelle elles appartiennent. Les résultats de l'étude ont également permis de mettre en exergue l'émergence de la femme comme personnalité distincte qui exprime ses besoins psychologiques, et de mettre en évidence son statut.

Mots-clés: littérature populaire; conte populaire; personnalité de la femme; analyse anthropologique.

مقدمة

تعتبر الحكاية الشعبية من أهم عناصر الأدب الشعبي، ولقد حظيت بعدة دراسات واهتمامات من قبل باحثي علم الفلكلور والأنثروبولوجيا، وهذا نظرا لثراء مادتها وارتباطها بالقيم الفنية والجمالية التي يعكسها الوجدان الشعبي والإبداع الجمعي.

استطاع الإنسان، عن طريق الحكاية الشعبية، أن ينقل أفكاره ومعتقداته وتصوراته وعاداته وخبراته في الحياة، ويقدمها في شكل بناء قصصي محكم، ومن هذا المنطلق نجد أن الحكاية الشعبية تستوعب ملامح التراث الشعبي أكثر من غيرها من أشكال التراث الشعبي الأخرى، وهذا نتيجة لبساطتها وسهولتها اللغوية وانتقالها بحرية من شخص إلى آخر وتوارثها من جيل إلى آخر عن طريق الرواية الشفوية.

تعكس الحكاية الشعبية أفكار المجتمع واتجاهاته، فهي تعكس نظرة المجتمع لدور كل من المرأة والرجل في واقع الحياة، حيث يوجد في كثير من نماذج التراث الشعبي وخاصة الحكايات الشعبية والأمثال الشعبية، بأن المرأة غير نافعة وليست بمبدعة وبالتالي يمنح هذا التراث تفوق الرجل على المرأة. إن المرأة أكثر الشخصيات ذِكرا من بين الشخصيات في الحكاية الشعبية، فهي قد تقمصت أدوارا عدة وأجادت دور البطولة في كل الأدوار فلعبت دور العجوز الشمطاء الماكرة، والمرأة المخادعة أو الخائنة، كما لعبت دور المرأة الوفية والبطلة والمبدعة.

1. حوصلة نقدية للأدبيات حول شخصية المرأة والتراث الشعبي

لقد اعتنت العديد من الدراسات بشخصية المرأة، كما تناولت دراسات أخرى التراث الشعبي في شقه المتعلق بالقصة الفلكلورية، والتي سعى أصحابها إلى إبراز أهمية الحكاية الشعبية وأشكال التعبير الأخرى في الكشف عن أسرارها وحل رموزها، عن طريق الجمع والدراسة، فيمكن إجمال الأعمال المتعلقة بموضوع الدراسة على النحو التالي:

درست مكانة المرأة في القصص القرآني من الناحية اللسانية للحوار النسوي (بدراني، 2012)، حيث تجلت أهمية هذا البحث في إبراز صورة المرأة والكشف عن سماتها من خلال حواراتها التي وردت في القصص القرآني، كما تمّ تبيان المكانة التي حظيت بها المرأة في الإسلام وخلصت هذه الدراسة إلى إبراز الصورة الحقيقية التي رسمها القرآن للمرأة، وأنه باستطاعة الحوار أن يكشف عن السمات الشخصية للمحاور ويبرز مكانته.

وتعرضت دراسة للقصة الفلكلورية، مقتصرة على منطقة محدّدة وهي منطقة الباسك الحدودية بين فرنسا وإسبانيا (Zaïka،2005)، أين تم التعرض بالخصوص إلى المصطلحات المتواترة وكذا تطبيق تحليل فلاديمير بروب Vladimir Propp المورفولوجي للحكاية.

كما اهتمت دراسة أخرى بالحكاية الخرافية الشعبية في منطقة تبسة (الجزائر) عن طريق الجمع والدراسة (شفرور، 2009)، أين خلُص إلى أنّ الحكاية الخرافية الشعبية مثّلت البيئة الاجتماعية للمنطقة بكل عناصرها وقيمها، وأنها أي الحكاية الخرافية الشعبية، عبّرت فعلا عن كل الاحتياجات النفسية والتاريخية والثقافية، وأبرزت أهم الوظائف التي تؤديها هذه الحكاية. كما اعتمدت دراسة أخرى، والتي اهتمت بالقصة الشعبية في منطقة سطيف بالجزائر (دربدي، 2004)، على جانب التشكيل الفني والوظيفي عن طريق

الجمع والدراسة. ويبرز في هذه الدراسة أنّ الحكاية الشعبية ترمي إلى تحصيل أهداف تربوية وأخلاقية واجتماعية، وهي فاعلة في تعليم الفرد منذ سنوات حياته الأولى، كما تؤدي الحكاية الشعبية وظيفة فنية تتمثل في حضورها في الأدب الرسمي.

توصلت دراسة (سليمان، 2001)، إلى أنّ القصص الشعبي والأساطير، يعتبران وسيلة لتحقيق التوازن النفسي للرجل والمرأة. لقد تم في هذه الدراسة إبراز الصفات السلبية في صورة المرأة كوسيلة لتهوين الموقف على الرجل، وتبرز الصفات الإيجابية في صورتها، في فترات ضعفها، للتهوين على النساء، كما أن القصص الشعبي يتناول الدور العام والخاص للمرأة، واستنتجت الباحثة أن هناك بعض العناصر المشتركة بين القصص العربية والقصص الأجنبية التي ترسم عناصر شخصية المرأة، مثل مفهوم الكيد وإدانة الأنثى، وأشارت إلى أن هناك تمييز في تراث القصص الشعبي العربي يجمع بين التعميم والتخصيص بين فئات النساء، فبينما تقتصر صفات معينة على فئة، تظل بعض الصفات معمّمة على كل النساء.

أما فيما يتعلق برواة الحكاية الشعبية حول المرأة، فقد استخلصت الباحثة رحمونة مهاجي، أن النساء رغم كونهن تمثلن السواد الأعظم من الرواة، فإنهن لا يرتقين أبدا إلى الاحترافية (Mehadji، 2009a) لأن الساحات والأماكن العمومية تبقى محرمة عليهن. كما تعرضت دراسة حديثة صدرت في 2010 (Ait-Zai، 2010)، إلى وضعية المرأة في المغرب العربي حيث أبرزت المكانة الاجتماعية ومدى تطور الذهنيات في مجتمعاتها تجاهها عبر حقبة زمنية واسعة. وتعنى الدراستان التي قدمهما ماليج (Malige، 2006) ومهاجي (Mehadji، 2009b) بإسهاب إلى الرواة وأماكن تواجد وسرد ومسالك القصة الفلكلورية، من سهرات عائلية، حفلات محلية، ورشات الخياطة، ساحات عمومية، مهرجانات، ثم انصب الاهتمام على مشكلة اللغة في السرد. واهتمت دراسة رحمونة مهاجي (Mehadji، 2009b)، حول السرد بواسطة الشعر بدلا من النثر كما هو معتاد في القصة الفلكلورية، قصد إبراز هاتين الطريقتين، كون الشعر والنثر يقدمان مهاما متباينة وفق ميزات كل جنس أدبي.

2. الإشكالية والفرضيات والمنهج

1.2 تحديد الإشكالية

تمثل الحكاية الشعبية جزءا من التراث الشعبي، وهي نتاجٌ للتراكم الثقافي والفكري المستمر والذي تكوّن نتيجة التفاعل الحيوي بين الإنسان وبيئتيه الطبيعية والاجتماعية، وتأثره بثقافات بعض الشعوب الأخرى، فجسّد فيه الإنسان معاناته وأحلامه وطموحاته. وهي عبارة عن تراكم لخبرات المجتمع ومدركاته ومعارفه وتقلبات كل أفراده وأفراحه وأحزانه وآلامه في الماضي البعيد والقريب.

إنّ الحكاية الشعبية عبارة عن سرد قصصي، يضرب جذوره في أوساط الشعب ويعدّ من مأثوراته التقليدية ويعالج هموم الإنسان اليومية ومشاغله، لذلك تقدم الحكاية الشعبية وظائف عديدة منها النفسية كالترويح عن النفس والتسلية، كما تعتبر الحكاية الشعبية بمثابة العلاج النفسي عن طريق إسقاط المريض لمشاعره، وذات بعد تربوي كنبذ الخبث والحقد والحسد والحثّ على العمل والاجتهاد وتعليم المتلقين معاني الحفاظ على الشرف والشجاعة والذكاء، ووظيفة ترفيهية لنسيان هموم الواقع.

تمثل الحكاية الشعبية التعبير الحقيقي للذاكرة الشعبية، فكانت تروى شفاهة منذ العصور السابقة، وكانت تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الحكي شفاهة قبل أن يعرف الإنسان الكتابة والتدوين، مما يجعل من المرأة حامية وراعية للحكاية الشعبية من الضياع والتلف على ممر الزمن، إذ كان الدور الأكبر في نقلها والحفاظ عليها من نصيب المرأة، عبر سردها للحكايات مرارا وتكرارا لأولادها وأحفادها، بما يثري خيالهم وينمي قدراتهم المعرفية.

لقد صيغت الحكايات الشعبية المتعلقة بشخصية المرأة، ضمن حيّز معين وله عدّة وجهات نظر حيث ينظر للدور الذي تلعبه الشخصية الحكائية للمرأة، وليس للمرأة، بحيث نجد أنّ الأم لها قدسيتها كرمز وليس كامرأة، فهذه الأم أيضا زوجة أو كنّة أو حماة، وكل دور ينظر له بوجهة نظر مختلفة يعبر عنها في الحكايات الشعبية، ومن ثمّة، كانت الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة عبر هذه التساؤلات: كيف صاغت الحكاية الشعبية، شخصية المرأة مرتبطة بالجوانب المتعددة التي تساهم في تكوين الشخصية العامة للمرأة الجزائرية؟ وهل عبّرت الحكاية الشعبية عن الاحتياجات النفسية

والثقافية للمرأة الجزائرية؟ ما الأدوار، الإيجابية منها والسلبية، التي لعبتها المرأة من منظور الحكاية الشعبية؟

2.2. صياغة الفرضيات

للإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة في الإشكالية تمّ صياغة الفرضيات التالية:

- للحكاية الشعبية الجزائرية دور في صياغة شخصية المرأة مرتبطة بجوانب متعددة (اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، تربوية) تشارك في تكوين الشخصية العامة للمرأة الجزائرية.
- استطاعت المرأة الجزائرية أن تعبر عن احتياجاتها النفسية والثقافية من خلال الحكاية الشعبية. لعبت المرأة أدوارا متعددة، منها السلبية والإيجابية، في بيتها وفي المجتمع ومع أفراد عائلتها.

3.2 اختيار المنهج

حسب طبيعة الموضوع محلّ الدراسة، اعتمد في إنجاز هذا البحث على المنهج التاريخي في الحديث عن المراحل التاريخية والحِقب الزمنية التي مرّت بها المنطقة (ميدان الدراسة)، كما استخدم منهج التحليل الأنثروبولوجي في تحليل وتفسير القصة الفلكلورية.

3. نتائج الدراسة

1.3 نتائج الدراسة من منظور القراءة التاريخية

1.1.3 التعريف بمنطقة تيسمسيلت

تيسمسيلت هي ولاية جزائرية، وتيسمسيلت مصطلح أمازيغي، بمعنى تيسم: غروب وسيلت: الشمس، أي غروب الشمس، أو هنا تغرب الشمس. كانت تيسمسيلت آهلة بالسكان منذ العصر الحجري القديم المتأخر، استمرت الحياة في المنطقة إلى غاية العهد الروماني حيث تمت السيطرة على الجهة الشرقية والجنوب الغربي من المنطقة، وفي سنوات 62-64 للهجرة دخل الإسلام إلى المنطقة خلال الحملة الثانية لعقبة بن نافع الفهري، إذ استقبل أهالي المنطقة الدين الإسلامي بترحاب شديد، ولقد تداول الحكم على المنطقة عدّة دول تاريخية وهي الرستمية، ثم الدولة الفاطمية بدءًا من سنة 298 للهجرة، وبعدها خضعت المنطقة للدولة الزيانية في سنة 312 للهجرة، وبعدهم

الموحدون في سنة 539 للهجرة، ثم الحفصيون سنة 632 للهجرة، وفي بداية القرن الثامن للهجرة الزيانيون، وصولا إلى العثمانيين. كما كان لهاته الولاية دور بارز الأهمية في مكافحة المستعمر الفرنسي، بداية بمساندة قبائل الونشريس للأمير عبد القادر وصولا إلى معارك ثورة التحرير بقيادة البطل المجاهد الشهيد جيلالي بونعامة.

2.1.3 المرأة الجزائرية

ظلت الأنوثة (عشراتي، 2009) إلى زمن قريب في البيئة الجزائرية عنوانا للضعف وإحالة على السقوط الأخلاقي والتحلل من الموثق. والبعد النفسي الذي يكتنف هذه النظرة هو بعد أنثروبولوجي، إذ أنّ التطور الذي خضعت له الإنسانية قد رسخ التمايزات بين الذكر والأنثى على أساس جسدي، كما أن ملابسات الحياة نفسها قد أهّلت الطرفين لأعباء فيها تباين واختلاف، فالرقة التي تلازم طبيعة الأنثى تكفل لها من السماحة ما ترعى به وليدها الذي يكون في أكمل صورة من الضعف، توازيها غلظة الذكر وقدرته على البذل العضلي.

يذكر الباحث عبد القادر خليفي (خليفي، 2004) أنّ المرأة في بلادنا كانت وما زالت قلعة الصمود والمقاومة، عماد الأسرة وخزّان الوطنية، حافظت على الانتماء الحضاري للأمة عقيدة وسلوكا، وبَلَّغت ذلك الانتماء للأبناء والأحفاد عن طريق التربية بواسطة الأحاجي والأساطير الملحمية والقصص الشعبية عن بطولات الأجداد للإبقاء على جذوة المقاومة. في أحضانها نشأ وترعرع الأبطال من الشهداء والمجاهدين أبطال الحرية والمدافعون عن الكرامة والهوية. ولقد مرّ تاريخ المرأة الجزائرية في العصر الحديث بثلاث مراحل هي:

3.1.3 المرأة الجزائرية في الفترة الاستعمارية

بعد مكوث الاستعمار الفرنسي لفترة طويلة، أخذ بيد المرأة الجزائرية وخاصة التي تقطن بالمدن الكبرى، فاستخدم العديد من النساء المتحررات في الوظائف الحكومية والمؤسسات الفرنسية، وأما المرأة القروية والريفية فظلت محافظة على عاداتها وتقاليدها التي ورثتها عن الأجداد حتى حصلت الجزائر على استقلالها (كيّال، 1981). ولكن في هذه الفترة كانت المرأة الجزائرية مضطهدة، كما قد يكون لتلك الفترة الاستعمارية أثرها السلبي على معاملة الرجال للنسآء، ذلك أن الاستعمار الفرنسي عُرف بقسوته على الأهالي، وهؤلاء ينقلون المعاملة نفسها إلى بيوتهم، ويحاولون أن يثبتوا وجودهم من خلال أسرهم وعائلاتهم. إنّ طبيعة المجتمع الجزائري تقتضي تحكم الرجل في أمور الأسرة

وسيطرته على المرأة، وكذالك حفاظ الرجل على شرفه، هذا ما جعل الرجل يبالغ في التشديد على المرأة، خاصة مع وجود الأجانب الغاشمين (مفقودة، 2009). يضاف إلى ذلك أن الفترة السابقة للاستعمار لم تكن تعطي الحرية الكاملة للمرأة، فكل الظروف كانت ضد الأنثى.

4.1.3 المرأة الجزائرية في فترة حرب التحرير

لقد أراد الاستعمار للمرأة الجزائرية أن تلين تحت وطأة الظلم والاستعباد والاحتقار، وأن تعاني من الجهل والتخلف والكبت والحرمان، والتعسف الذي تفرضه عليها أساليب المحتل من جهة، وبعض عادات وتقاليد المجتمع البالية والقيم الاجتماعية التي يتوجب على الناس أن يتعاملوا معها بوصفها قانونا لا يحق للإنسان أن يتجاوزه أو يخرج عليه، من جهة أخرى، هذه التقاليد التي تنصبّ على المرأة بالدرجة الأولى (الرواشدة، 2006)، دفعت بالمرأة الجزائرية، إلى أن كسرت قيودها التي كبتت أنفاسها، ونهضت وانطلقت تكافح بكل الطرق والوسائل المادية والمعنوية، داخل الوطن وخارجه، سياسيا وعسكريا، فتغيرت مفاهيمها وتبلورت أفكارها وبرزت شخصيتها بفضل وعيها وتوجهها الوطني (قنطاوي، 2009)، فهبّ الشعب الجزائري للكفاح بكل ما يملك وبما يستطيع يتساوى في ذلك الذكور والإناث، وقد أثبتت المرأة جدارتها في الكفاح بمساعدتها الرجل، وبحمل السلاح أيضا. (مفقودة، 2009)

فالمرأة الجزائرية خاضت حرب الاستقلال جنبا إلى جنبٍ مع الرجل، مما جعل أنظار العالم أجمع تلتفت إليها لما قدّمته من تضحيات وبطولات أثناء المعارك التي خاضتها (كيّال، 1981)، أمثال لالّة فاطمة نسومر، زهرة ظريف بطلة معركة الجزائر التي ترعرعت في صباها في مدينة تيسمسيلت، وجميلة بوحيرد وأوريدة مداد وحسيبة بن بوعلي التي يعود أصلها إلى منطقة الونشريس المنتمية إقليميا لولاية تيسمسيلت أيضا، وغيرهن ...

لقد كانت الحرب فرصة لتعبر المرأة عن نفسها بصورة مضاعفة تثبت قوتها للمستعمر، وللرّجل في الوقت نفسه، وأبرزت الثورة المسلحة صورة المرأة المحاربة والمناضلة والمشاركة فكان حضورها هذا دليلا بارزا على التّحول الاجتماعي الذي وقع في البلاد وفرض مساهمة كل مواطن في محاربة الاستعمار. إذن، فإنّ الأدوار المتعددة التي قامت بها النساء خلال الثورة قد أحدثت خلخلة في العلاقة الاجتماعية، فارتفعت لأول مرة مكانة المرأة ونسجت حول بطولتها القصص والحكايات (مفقودة، 2009).

5.1.3 المرأة الجزائرية في فترة الاستقلال

أتت فترة الاستقلال عام 1962، وفرح الشعب الجزائري بهذا النصر المبين وظن كل فرد أنه سيصل إلى ما يصبو إليه، لكن الواقع كان مريرا إلى درجة كبيرة، فمرحلة البناء والتشييد كانت صعوبتها لا تقل عن صعوبة مرحلة الكفاح المسلح، وبالنسبة للنساء فقد وجدنّ أنفسهن يعُدن القهقرى، حيث صار ينظر إليهن تلك النظرة الاستعلائية، وكأنّ المائة واثنتي وثلاثون سنة من الاستعمار لم تكن إلا استثناءً للقاعدة، في مأساة طويلة، تبدأ منذ ما قبل الاحتلال الفرنسي لتستمر عبر الزمن. أصيبت النساء إذن بخيبة أمل بعد الاستقلال، لأن المجتمع عاد إلى صورته الطبيعية الأصلية التي تنظر إلى المرأة على أنها قاصرة، لكن المرأة التي أثبتت جدارتها أثناء الثورة ما كان لها أن تستسلم بسهولة، كونها تأثرت بالموقف التحرري، فظلت تطالب بحقها في ميدان الشغل والتعليم.

وعلى الرغم من أن المرأة الجزائرية قد حققت بعض مطالبها التي كرستها القوانين، فقد بقيت بعيدة عما كانت تصبو إليه. كما أن السلطة الحاكمة لم تذهب بعيدا في ميدان نصرة المرأة ومساندتها وذلك لجملة من الأسباب يمكن إجمالها في الصعوبات التي كانت تعاني منها البلاد وخاصة المالية منها، جعلت البلاد لا تهتم إلا بالمشكلات الاقتصادية، واضعة حقوق المرأة وواجباتها ضمن الأمور الداخلية البسيطة التي يمكن التفرغ لها فيما بعد. كما أن نساء الجيل القديم أنفسهن لم يكنّ ينقَدن بسهولة أمام تيار التحرر والمساواة بل قد أثّرن سلبا على بناتهن، وبذلك بقيت المرأة في وضعية أقل بكثير من الطموحات التي قد رسمتها. (صالح بن شريف، 2009)

6.1.3 إشكالية موقع المرأة في المجتمع

يرتبط موقع المرأة المتدني بتاريخ أنظمة الإنتاج التي مرّ بها المجتمع البشري، فمرحلة الصيد التي مرّ بها الإنسان كان الأساس فيها القوة العضلية وما تنطوي عليه هذه العملية، لذلك كانت البداية لظهور النظام الأبوي الذي تخلت فيه المرأة عن حقوقها الاجتماعية مقابل الحصول على فوائد اقتصادية، وفي هذه المرحلة أصبحت المرأة لا توفر للرجل سوى حاجياته داخل البيت، أي أنها أصبحت ذات دور هامشي في عملية الإنتاج وعليه، كان عليها القبول بوضع متدني في النظام العائلي. من هنا نشأت سلطة الرجل على المرأة ونشأت العائلة الأبوية، أي أنه ربط مكانة المرأة بدورها في عملية الإنتاج

في النظام التاريخي وهو اتجاه يتبناه التحليل الأنثروبولوجي في مراحل تطور المجتمع البشري إلى نظام الزراعة الذي ساعد على تحول السلطة إلى المرأة، إذ أن نظام الاقتصاد الزراعي فرض مشاركة المرأة في العملية الإنتاجية كونها قادرة على المساهمة في هذا النظام الإنتاجي، ومن ثمة فهي تقوم بدور مزدوج داخل العائلة وخارجها مما منحها سلطات إضافية أدت إلى تحول النظام العائلي من النظام الأبوي patriarchy إلى النظام الأمومي matriarchy، وهو النظام الذي ينتسب فيه الأبناء إلى الأم وليس إلى الأب، إلاّ أنّ هناك رواسب بقيت مسيطرة في النظام العائلي تمتد في جذورها إلى النظام السابق (الصيد) وعلى أساسه بقيت المرأة تعاني من عقدة الاضطهاد من قبل الرجل.

كما أن إشكالية النظام العائلي الأمومي الذي تميزت به بعض المجتمعات البشرية حسب الدراسات الأنثروبولوجية، عرف لدى المجتمعات العربية قبل الإسلام، إذ توضح بعض الدراسات المتعلقة بتلك المرحلة التاريخية أن النظام الأمومي كان شائعا لدى المجتمعات العربية قبل الإسلام ويوضح ذلك وجود بعض القبائل التي تلقب بأسماء إناث، كما أن آلهة العرب في أغلبها كانت تحمل أسماء مؤنثة مثل اللاّت والعزّى ومنَاة (عبد الرحمن، 2009)، مثل ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى: {أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالعُزَّى، وَمَنَوةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}. (الآيتان 19 و20، سورة النجم)

7.1.3 شخصية المرأة

قد يتبادر إلى الذهن أن الحكي القصصي يبدو قريبا للمرأة تماشيا مع سيكولوجيتها ربما لوضعها الاجتماعي، فالأم عادة ما تضطلع بدورها في حكي القصص والروايات للطفل أكثر من الأب، كما أن المرأة عموما أكثر قدرة من الرجل في التعامل مع الأطفال الذين يحتاجون لمزيد من الصبر وإظهار الرغبة في الحكي وقراءة الكثير من القصص لهم، ومعروف أنّ" شهرزاد" الراوية الأكثر شهرة وصيتا في مجال الحكي القصصي في الأدب العربي والعالمي من جنس النساء. وقد يكون كذلك للمرأة القدرة على الحكي القصصي، وليس الكتابة للظروف الاجتماعية عكس الرجل الذي يتوفر له الوقت والقدرة على الكتابة. (الوهابي، 2007)

سيرة المرأة، كما ترد في القصص الشعبي والأساطير العربية، هي إحدى تلك الموضوعات التي تعكس وضع المرأة الحقيقي في المجتمع في فترة معينة من جهة، وصورة المرأة المتوارثة

أو المرغوبة لتحقيق أهواء معينة من جهة أخرى. لذلك، فإن تلك القصص والأساطير تعدّ مصدرا بالغ الأهمية للتوصل إلى وضع المرأة وصورتها، وخاصة إذا تمّ مقارنة هذه الصورة بوضع المرأة الفعلي من خلال التاريخ أو سير شخصيات نسائية واقعية عاصرت نفس الظروف التاريخية. (سيد سليمان، 2001)

تلعب المرأة دورا هاما كشخصية من شخصيات الحكاية الشعبية، فتكون مصدرا للشر كشخصية الساحرة، بجانب الدور الذي يمكن أن تلعبه كرمز أو مصدر للخير، وتتعدد صور شخصية المرأة في الحكاية الشعبية، فهي الملكة أو الأميرة، وهي أيضا المرأة العجوز التي تعمل على الصلح ونشر الخير، أو العجوز الخبيثة أو الساحرة التي تجسم الشرّ وتدبّر المكائد. (حسين، 1993)

لذا قد تكون شخصية المرأة في الحكاية الشعبية شخصية إيجابية يتعاطف معها المتلقي والحاكي لما لاقته من ظلم وعذاب دون أن تتخلى عن عفتها وإيمانها، كما قد تكون شخصية المرأة سلبية منفرة منبوذة. (الصفدي، 2011)

2.3. نتائج الدراسة حسب التحليل القصصي

سيتم القيام بالتحليل الأنثروبولوجي لحكاية أصحاب الكاف، وهي حكاية جزائرية من منطقة تيسمسيلت. ي الاستهلال، نجد أن الراوي قد استهل سرده للحكاية بأسلوب يهدف إلى لفت الانتباه وإثارة المستمع وتهيئته لتلقي الحكاية، فالاستهلال هنا بمثابة المقدمة التي تحمل معانٍ كثيرة موحية، يتم إيصالها إلى ذهن المستمع، فعند قوله: "في زمان بكري..."، فهو يشير إلى أن أحداث الحكاية الشعبية حدثت في الماضي القديم، في زمان ومكان غير محددين، وفي قوله: "قال البرّاح..."، فالبرّاح حرفة قديمة نابعة من عمق المجتمع الجزائري، يجوب السوق والشوارع الرئيسية ويعلن للناس البشرى أو الحزن. وهو "يعتبر البرّاح أهم خاصية للخطاب الشفوي، وهو يحوّل التعاقدات الجماعية والفردية إلى أخبار عامة ويكون بذلك النقل قد سجل الحدث وأعطى تلك المعلومة شرعية سوسيو-رمزية". (ملياني، 2009، ص 118)

أما قوله: "هكذا الدنيا، تلعب بأقدار الملاح، يوم فيه أفراح، وعشرة فيها الأقراح..."، فهذه المقولة تلخص المعنى العام للحكاية وهي مسلّمة اجتماعية، تبني تصورها على أن الدنيا رمز إلى الظلم والانفعال السلبي والعكسي، ففاعل الخير يجب أن يصاحبه الخير، ولكن

يحدث العكس، فالناس الطيبون لن تكون الدنيا بصفهم، فنجدهم الأكثر ابتلاءً. لذلك فإن الراوي، من خلال معاني القدر والمكتوب الراسخة في الوعي الجمعي، يوحي إلى قصة صراع الإنسان مع نفسه والقوى الخارجية. فالحظ والأقدار وظروف الزمان والمكان، كلها عوامل تلعب دورا كبيرا في تقرير المصير، وهذا ما يعانيه الإخوة والذين يمثلون شخصية الأبطال في الحكاية.

انحصر ظهور شخصية المرأة التي برزت في هذه الحكاية في خمس شخصيات: الأم التي أنجبت الأولاد السبعة، الخالة التي تولت تربية الأولاد، والمرأة العاقر الغيورة، وكلها كانت عبارة عن شخصيات ثابتة مسطحة لم تقم كل واحدة منهن إلا بوظيفة واحدة، عدا شخصية المرأة العجوز الحكيمة، فكانت شخصية نامية متغيرة تفاعلت مع الأحداث في الحكاية، أما ابنتها فكانت هي الأخرى شخصية ثابتة مسطحة لا عمق لها في الحكاية.

تنفتح الحكاية في بدايتها، بوضع مستقر نوعا ما، والذي ما يلبث أن يضطرب ويتوتر بسبب وفاة الوالدين، تاركين أطفالهم السبعة بلا راعي ولا ولي، ليعود ويستقر الوضع نسبيا بعد تولي خالتهم الرعاية بهم. والحكاية هنا تبرز مكانة الخالة في المجتمع، وتؤكد ما صرّح به الإسلام، حيث كرّمها وجعلها أحقّ للحضانة من العصبة، فالخالة بمثابة الصدر الحنون للأبناء، عن النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم -، قَالَ: {الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ} (البخاري، 2001، ص 2699)، فالخالة في هذه الحكاية تمثل الشخصية العطوف الخيّرة والسوية، الإيجابية والمستقيمة، لأنها اهتمت واعتنت بالأطفال وتعبت في تربيتهم رغم عُسر حالها. ولقد ظهرت هذه الخالة في الصورة النموذجية المرغوبة في شخصية الخالة التي يريدها المجتمع وفق موروثه الثقافي والاجتماعي.

أما المرأة العاقر، فمثّلت شخصية سلبية غير سوية، التي قد تعاني من اضطرابات نفسية وأمراض تؤثر على سلوكها وتصرفاتها مع من حولها وما حولها، فتتحول إلى شخصية عدوانية أو زاهدة في الحياة، وبما أن قوة المرأة ورسالتها في الحياة بنظر الكثيرين نابعة أساسا من قدرتها على الإنجاب، فإن عقمها يضعها في خانة الضعف والإحساس بالعجز، فالمرأة بالأساس في مكانة منقوصة، فكيف بها إذا فقدت هذا الدور، والمجتمع يرمق المرأة العاقر بنظرة دنيّة ويعاقبها على أنها أرضا جدباء ليس لها دور مما يشكل عبئا

ثقيلا عليها. ومن عُرف مجتمعنا الجزائري ألا يقبل الزوج، غالبا، بمثل هذا الوضع فيتزوج عليها أو يطلقها وبذلك تفقد كل شيء.

كما يلاحظ في الحكاية وجود تداخل وتمازج بين خصائص الجماعة والبيئة التي يعيشون بها، مما يعكس ثقافة تلك الجماعة من خلال ذكر الغابة، العين، القِربة، البستان، قطف الفاكهة... ويشير أيضا إلى أن بيئة الجماعة بيئة ريفية فلاحية، كما يحيل ذلك إلى التقسيم النوعي للعمل في الزراعة ومساهمة المرأة الريفية في أعمال الزراعة كقطف الفاكهة.

يرمز بقاء الأولاد تائهين بعد أن تخلصت منهم المرأة العقيم، وكذا رحلتهم في الغابة، إلى تحقيق الذات الذي يتطلب القطيعة مع الماضي، وهو تجربة قاسية تفترض الوقوع في العديد من الصعوبات الكبيرة التي تعترضهم، فيهدف الحاكي من خلال هذا، عن طريق الحكاية الشعبية، إلى غرس قيم ومعان إنسانية ومثاليات في كيفية مصارعة قوى الشر والبحث عن الثبات والاستقرار ولإقناع المتلقي بأهمية ذلك، فنهاية الحكاية تكون بما يلائم ضمير الإنسان، فالعدل ينتصر على الظلم، والخير ينتصر على الشر.

ويمثّل سقوط الأخ الأصغر في مغارة الأسود، ثم مضي قسط كبير من الزمن وهو يعيش رفقة إخوته مع أشبالها، عودة إلى الأمّ، فالأرض بمثابة الأم، إذ أن الدخول إلى المغارة يناسب عودة لأحشاء الأرض، للرحم الأمومي بالنسبة للكثير من الباحثين، سواء كانوا علماء حفريات، أو مؤرخين أو محللين نفسانيين (سيرنج، 1992). أما الأسد فله رمزيات غزيرة، فهو يجسد حسب الأحوال، القوة، الشجاعة، الشمس، الخلود، الزمن، ولكنه غالبا ما يجسد الحيوية والسلطة الحامية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ منطقة تيسمسيلت (بالجزائر) كانت مأهولة وتزخر بشتى أنواع الحيوانات، والتي من بينها الأسود، ولها مع أهالي المنطقة عدّة قصص وحكايات واقعية، ثمّ انقرضت تلك الأسود بفعل الحروب والتعمير ومع وصول المستعمر إلى المنطقة، بسبب ما أحدثه من تعرية للغابات وصيد للغزلان وحيوانات أخرى كانت مصدر غذاء لتلك الأسود، كما أن المستعمرين تعقبوا الأسود لأسرها لغرض بيعها لحدائق الحيوان وشركات السيرك العالمية أو لبيع جلودها.

تواصل الحكاية وصفها للحالة الأولى التي كان عليها المجتمع البشري، إذ تصور طور ما قبل الكتابة والتدوين، فالإنسان البدائي لا يختلف في حياته عن الحيوان، يهيم على وجهه في الغابة (كما كان عليه في المرحلة الدنيا من المرحلة البدائية للتاريخ). ووفق نظرية التطور الاجتماعي لِلويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan، فإن هذه المرحلة تبدأ منذ نشأة الإنسان، حيث استقرّ الأولاد في عيشهم مع الأشبال وحيوانات الغابة، يشاركونهم المسكن والمأكل، فكانوا يسكنون المغارة ويقتاتون اللحم النيئ الذي يحصلون عليه بالصيد، إلى أن اكتشفوا البركة وصيد الأسماك، ثم تلتها المرحلة الوسطى من المرحلة البدائية (والتي تبدأ حينما لجأ الإنسان إلى صيد الأسماك للحصول على غذائه). (الخشالي، 2011)

يكتشف الصياد الإخوة، ولمعرفة سرّهم يلجأ إلى المرأة العجوز، والتي هي بدورها وحكمتها، استطاعت التعرف عليهم واستدراجهم للعودة والعيش مع بني البشر في القرية، فالعجوز تمثل هنا شخصية المرأة الحكيمة العارفة، بمعزل عمّا يصوره المخيال الجماعي لها، الذي همّش عقلها مقابل إعلاء عقل الرجل، فهي بهذا تثبت قدرة وجدارة عقلها.

إن لجوء الصياد إليها طالبا منها التفسير والمعرفة، يدل على تنقل المرأة من موقع الاتهام وضعف عقلها، إلى موقع إصدار الأحكام بعد الحصول على الأدلة، ومن خلال ذلك، فإن المرأة تنتقل من حالة اجتماعية ظلمت فيها إلى أخرى تمكنها من إصدار أحكامها وإبداء رأيها بعد أن ظلت طيلة حياتها متلقية لأحكام الرجل، فهي بهذا الدور ستحطم التابو الذي وضعت فيه ظلما وستخرج من بين قضبان السجن الذي زجّها فيه المخيال الجماعي.

4. مناقشة النتائج

مكنت دراستنا من استخلاص تسلسل مراحل التطور الاجتماعي لدى الإنسان من المرحلة البدائية الوحشية الدنيا (السكن في المغارات، الصيد، تناول اللحم النيئ، ارتداء جلود الحيوانات)، ثم المرحلة البدائية الوسطى (اكتشاف صيد الأسماك)، ثم اكتشاف الأكل المطبوخ بواسطة المرأة العجوز والصياد، فالمرحلة الحضارية (ظهور اللغة، مثل عندما تكلم الأخ الأصغر مع الفتاة، ارتداء ألبسة منسوجة من الصوف، العيش في القرية مع الإنسان).

كما تبين من خلال هذه الدراسة أن الحكاية الشعبية احتوت على خمس شخصيات نسائية عبّرت من خلالها المرأة عن حاجاتها وأحاسيسها، كما أن هذه الحكاية قد أنصفت المرأة في جميع الأدوار التي تقمصتها، وتبين لنا ذلك من خلال أحداث الحكاية، في دور الأم والخالة التي جعلت منها صورة مثالية للخالة الحامية الحنونة، التي وقفت بجانب الأطفال وربتهم تربية صالحة، والمرأة العجوز التي بحكمتها استطاعت أن تفك لغز الإخوة وأعادتهم للعيش مع بني البشر، الشيء الذي عجز الرجل عن القيام به. فمن خلال هذه الحكاية الشعبية، استطاعت المرأة الجزائرية أن تثبت وجودها ومكانتها، فجعلت منها بطلة مثالية وحكيمة كاملة القدرات.

إن تحليل الدوافع الكامنة وراء رغبة المرأة في إثبات ذاتها وجدارتها يكشف مواجهتها لمنع وصدّ على أرض الواقع، لأن دوافعها مناقضة للقيم الثقافية للجماعة، مما يخلق لها صراعاً، أسماه طوالبي بصراع القيم أو الصراع التقاطبي- وجدت له، عن طريق الحكاية الشعبية، مخرجا لها تؤمّن به لنفسها نموذجا من عمليات تحقيق الذات. (طوالبي، 1988) الا أن هذا كله لم يمنعها من خلال هذه الحكاية، في صورة أخرى سلبية تظهر فيها في شكل تلك المرأة العاقر الماكرة التي وصلت بها العدوانية والغيرة، إلى إبداء شتى فنون الكراهية والانتقام والمكر والدهاء للتخلص من الأطفال، وربما جاءت هذه الصورة لتحافظ على التوازن والثنائية الأخلاقية، لأن الصراع الأزلي بين الخير والشر قائم إلى الأبد.

خلصت معظم الدراسات السابقة المذكورة في دراستنا، في تناولها لموضوع صورة وشخصية المرأة في الحكاية الشعبية إلى نفس النتائج، هي أنّ الحكاية الشعبية تحمل صفات وملامح الجماعة الشعبية، من أعراف ومعتقدات في شتى جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية. كما تحمل ا في جانبها المتعلق بالمرأة، الكثير من النماذج والصور السلبية، والايجابية عن المرأة في مختلف مواقعها ومراحل حياتها (بنت، أخت، زوجة، أم...). فتأرجحت صورتها ما بين السلبي والايجابي، وهذا يوافق نتائج دراستنا.

أما فيما يخص أوجه الاختلاف بين تلك الدراسات ودراستنا، فنذكر أن دراسة نتاليا زايكا Natalia M. Zaïka اختلفت بتعرضها بالخصوص إلى المصطلحات المتواترة في الحكاية الشعبية. واختصت فاطمة الزهراء بدراني، في دراسة مكانة المرأة في القصص

القرآني من الناحية اللسانية للحوار النسوي. في حين كان اختلاف دراسة رحمونة-مهاجي، في أنها توصلت إلى أنّ النساء رغم كونهن تمثلن السواد الأعظم من الرواة، فإنهن لا يرتقين أبدا إلى الإحترافية. أما دراسة ريجيس ماليج Régis Malige، فيكمن اختلافها في أنها انصب اهتمامها بأداة اللغة في السرد.

خاتمة

مكنت دراسة الحكاية الشعبية الجزائرية من الكشف عن ملامح صورة شخصية المرأة وكيف رُسمت، في بعدها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والنفسي والفكري، فتمثلت صورة شخصيتها بمنطقة تيسمسيلت بكل جوانبها، وعبّرت عن الاحتياجات النفسية والثقافية للمرأة والمجتمع إذ أنها تضمنت جوانب شخصية المرأة المتعددة (اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، تربوية) التي تشارك في تكوين الشخصية العامة للمرأة الجزائرية.

تبين من خلال الدراسة، أنّ المرأة احتلت أدوارا متعددة منها السلبية والإيجابية، في بيتها وفي المجتمع ومع أفراد عائلتها، فتأرجحت شخصيتها بين ما هو سلبي وما هو إيجابي، واحتلت عدّة أدوار وتعددّت صورها، فلعبت أدوارا إيجابية، منها دور المرأة الحكيمة المدبرة، كما لعبت أدوارا سلبية كالشريرة، إذ كانت مصدرا للشر كشخصية المرأة العاقر.

كما أشارت نتائج الدراسة إلى أنّ المرأة قد ظهرت كشخصية متميزة، استطاعت أن تعبّر عن احتياجاتها النفسية، ومكتسباتها الثقافية، وإبراز مكانتها وإظهار الحاجة إليها للأخذ برأيها ومشاورتها، حيث ظهرت شخصية المرأة الجزائرية من خلال الحكاية الشعبية أكثر اتزانا وذكاء في تدبير الأمور، واتخاذ القرارات، واتضح ذلك مثلا من خلال شخصية المرأة الحكيمة المدبرة في حكاية أصحاب الكاف.

وكتتمة لهذه الدراسة، يمكن اقتراح دراسة أشمل بالاستعانة بالتحليل الأنثروبولوجي وكذا التحليل اللاشعوري المكنون للعلاقات الظاهرة والملموسة في متن الحكاية، حتى يتسنى إبراز النظم الاجتماعية التي انبثقت منها، مما يساهم في دراسة أنثروبولوجية علمية وأكاديمية أعمّ تسمح باستغلال واستثمار هذه المادة على نطاق أوسع، وفي انجاز دراسات ميدانية في المجتمع المحلي لإظهار أهمية الحكاية الشعبية في التنشئة الاجتماعية، ومدى إمكانية إزالة الأحكام الخاطئة الموروثة، وتغيير التصورات الشعبية والأفكار الجمعية التي كونتها الحكاية الشعبية عن المرأة وفقاً للواقع الحقيقي والمكانة

الجديدة التي تحتلها المرأة الجزائرية. والذي سيشجع، لا محالة، على توعية المرأة بالدور التربوي والعقلي الذي تساهم به الحكاية الشعبية في تنمية القدرات الفكرية والعقلية والخُلقية لدى الأطفال والتنشئة الاجتماعية السليمة لهم.

المراجع

1. القرآن الكريم.
2. الإمام البخاري، لجامعه محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، 2001. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه -صحيح البخاري-، دار طوق النجاة، مصر.
3. إبراهيم، نبيلة، 1981. أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر.
4. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، جمعه عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، 1998. لسان العرب، م1 ج6، دار المعارف، القاهرة- مصر.
5. الخشالي، شاكر حسين، 2011. الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات، الأكاديمية العربية المفتوحة، الدنمارك.
6. الرواشدة، سامح، 2006. منازل الحكاية - دراسات في الرواية العربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن.
7. الصفدي، ركان، 2011. مذكرات الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس هجري، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق- سوريا.
8. الوهابي، بن محمد عبد الرحمن، 2007. الرواية النسائية السعودية والمتغيرات الثقافية- النشأة والقضايا والتطور، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر.
9. بدراني، فاطمة الزهراء، 2012. دراسة مكانة المرأة في القصص القرآني - دراسة لسانية للحوار النسوي، مذكرة غير منشورة، المركز الجامعي تيسمسيلت- الجزائر.
10. بدير، حلمي، 2002. أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية- مصر.
11. برنس، جيرالد، 2003. قاموس السرديات، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة- مصر.
12. حسين، كمال الدين، 1993. التراث الشعبي في المسرح المصري الحديث، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة- مصر.
13. خليفي، عبد القادر، 2004. "القَوْل، المرأة والثورة التحريرية"،مجلة إنسانيات، 25-26، 7-25، الجزائر.
14. دريدي، مبروك، 2004. القصة الشعبية في منطقة سطيف - التشكيل الفني والوظيفي (جمع ودراسة)، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة- الجزائر.

15. سيد سليمان، أسماء عبد الرزاق، 2001. "دراسة سيرة المرأة في القصص الشعبي والأساطير العربية"، جمعية دراسات المرأة والحضارة، العدد 2، القاهرة – مصر، 90-98.
16. سيرنج، فليب. 1992. الرموز في الفن، الحياة، الأديان، دار دمشق، سوريا.
17. شفرور، سميحة. 2009. الحكاية الخرافية الشعبية في منطقة تبسة - جمع ودراسة، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة- الجزائر.
18. صالحي بن شريف، حنيفة، 2009. اضطراب التواصل بين الزوجين وتأثيره على أداء الزوجة الجامعية لدورها الأمومي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة- الجزائر.
19. طوالبي، نور الدين، 1988. الدين والطقوس والتغيرات، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر.
عبد الرحمن، ضامر وليد، 2009. "التحليل الاجتماعي لوضع المرأة في الفكر العربي الحديث"، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 2، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر.
20. شراتي، سليمان، 2009. الشخصية الجزائرية: الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
21. قنطاوي، محمد، 2009. من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي - حقائق، وثائق، دراسات، تحقيقات وشهادات، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر.
22. كيّال، باسمة، 1981. من مذكرات تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عزّ الدين للطباعة والنشر، لبنان.
23. مفقودة، صالح، 2009. المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
24. ملياني، الحاج، 2009. التبادل الطقسي والتمظهر الاجتماعي، "البرّاح والإهداءات في المجال الحضري بالغرب الجزائري"، إنسانيات، العدد 46، الجزائر، 115-126.
25. Ait-Zai Nadia, 2010. "Vers la citoyenneté", *L'Année du Maghreb*, 2, France, pp. 139-154.
26. Malige Régis ; Valérie Michel, 2006. "Le conte populaire. Approche socio-anthropologique", *Recherches sociologiques et anthropologiques*, 37-2, Université catholique de Louvain- Belgique, pp. 219-221.
27. Mehadji Rahmouna, 2009a. "Le conte populaire dans ses pratiques en Algérie", *L'Année du Maghreb*, 2, France, pp. 435-444.
28. Mehadji Rahmouna, 2009b. "La poésie dans les contes populaires algériens", In*saniyat*, 43, Algérie, pp. 17-25.
29. Zaïka Natalia Mikhailovna, 2005, "Morphologie du conte populaire merveilleux en Pays Basque de France et d'Espagne, à travers les corpus de la fin du XIX siècle – début du XX siècle". *Lapurdum*, 10, Université Montaigne Bordeaux- France, pp. 337-341.

ملحق

حكاية أصحاب الكاف

قال البرّاح: يا ناس يا سامعين...، يا صغار، يا كبار، ... هكذا الدنيا تلعب بأقدار الملاح... يوم في الأفراح وعشرة في الأقراح...

في زمان بكري (أي في قديم الزمان)، كانت تقطن امرأة وزوجها بعيدا عن القرية، أنجبا سبعة أولاد، ولم يلبث أن مات الوالدين معاً بسبب مرض، فأصبح أولئك الأولاد يتامى لا أحد يهتم بهم أو يحنّ عليهم، وساء حالهم كثيرا. كان للأولاد خالة ميسورة الحال، متوفى زوجها الغني، والتي حينما علمت بسوء حال أبناء أختها، أسرعت إليهم وأخذتهم معها إلى منزلها في القرية، فاهتمت بهم وشقت وتعبت من أجل تربيتهم، حتى صاروا فتية في قمة التربية والجمال.

بالقرب من منزل الخالة، كانت تقطن امرأة وزوجها وحيدين لأن تلك المرأة كانت عاقرا، لم تستطع الإنجاب بعد عدّة سنوات من الزواج، وكانت تلك الجارة ترى زوجها، في كل يوم عند قدومه من عمله، يلاعب ويتحدث إلى الفتية وهم يلعبون بالقرب من بيتها. فأحست الزوجة بالغيرة، وأن هؤلاء الفتيان سيذكرون دوما زوجها بأنها عاقر، فيطلقها ويتزوج غيرها.

بعد أن وسوس الشيطان للمرأة العاقر، فكرت في التخلص منهم. ذات يوم، طلبت من الأطفال مرافقتها إلى حقلها البعيد المليء بالفواكه المتنوعة، لمساعدتها في القطف ووعدتهم بأن تدعهم يأكلون ويأخذون ما يشاءون من الفواكه، فصدّقها الأولاد ومضوا معها متحمسين فرحين، فأخذتهم الجارة العاقر إلى غابة بعيدة مهجورة، وهناك ادّعت بأنه يوجد بالقرب من مكانهم، عينٌ تريد أن تملأ قربتها ماءً، خشية العطش، وطلبت من الأولاد أن يبقوا مكانهم ولا يتبعونها، ثم عادت تلك المرأة إلى بيتها وتركتهم في تلك الغابة.

أما الأطفال، فقد ناموا بعد طول انتظارهم نتيجة تعبهم من كثرة المشي، وحينما استيقظوا تفاجأوا بحلول ظلام الليل، فانكمشوا واحتموا ببعضهم البعض، يحذوهم في ذلك الأمل أن تلك المرأة ستعود. ولكن المرأة لم تعد...

بعد انقضاء ثلاثة ليالي، قرّر الأولاد الخروج لوحدهم من تلك الغابة المهجورة والمخيفة، فراحوا يبحثون عن المخرج ويجوبون أطراف الغابة، ولكن دون جدوى، حتى حلّ ظلام الليل مرة أخرى. وفي تلك الأثناء، دخل الأخ الأصغر، دون أن ينتبه له باقي إخوته، في مغارة وجدها، والتي كانت عبارة عن مأوى لسبعة أشبال أسود صغار كان أبويهم قد ماتا، ولشدة تعب ذلك الأخ الأصغر وانهيار قواه نظرا لطول المشي في الغابة، ولكثرة الظلام الدامس، استسلم للنوم حينما أحس ببعض دفء فرو الأشبال دون أن يراهم وهو لا يدري أين هو.

أما باقي الإخوة فلم ينتبهوا لغياب أخيهم الأصغر لشدة تعبهم وناموا هم كذلك تحت شجرة كبيرة بعيدا عن مغارة الأشبال.

في الصباح الموالي، استيقظ الأخ الأصغر، فوجد نفسه وسط الأشبال الصغار فصاح: "من أنتم؟ ماذا تفعلون هنا؟" فأجابه الأشبال: "فقدنا أبوينا منذ أيام ولا يوجد حتى من يمكنه أن يعتني بنا، إننا لم نذق طعاما منذ اختفاء أبوينا". فأشفق الطفل الصغير لحالهم وقرر أن يساعدهم. انطلق الطفل سعيا في الغابة باحثا لهم عن طعام يسد رمقهم، ناسيا حاله، وعاد بعد مدة، حاملا طعاما كافيا للأشبال السبعة وشاركهم الأكل لفرط جوعه ودام على هذه الحال أياما عدة.

أما الإخوة، فقد بحثوا عن أخيهم في كل مكان حينما افتقدوه، ورغم تيقنهم من ضياعه، فإنهم واصلوا البحث عنه لمدة ثلاثة أشهر كاملة.

ذات يوم، عثر الإخوة في تلك المغارة على أخيهم، ففرحوا به أشد الفرح لسلامته ولقائه، وسألوه أين قضى تلك الشهور كونهم قد بحثوا عنه في كل مكان دون جدوى، وسألوه عن قصة أولئك الأشبال المتواجدين معه، فطمأنهم بأنهم ليسوا شرسين، بل أصدقاء أعزاء، وسرد لهم ما حدث له وكيف كان لقاؤه بالأشبال، وأوضح لإخوته أنه لا يمكنه التخلي عن أصدقائه وعرض على إخوته البقاء ليعيشوا جميعا مع بعض، فقبل الإخوة وعاشوا سعداء جميعا في تلك المغارة.

في يوم من الأيام، سمع الأطفال والأشبال زئيراً شديداً دوى كل أنحاء الغابة وكان الزئير يقترب شيئا فشيئا منهم، واتضح أنه زئير لحيوانيْن بدل واحد، وامتلك الأطفال ذعراً وخوفاً شديدين. ثم بدا لهم ما كانوا يخشونه: لبؤة ضخمة مخيفة وأسد شرس أضخم منها. لقد جلبتهما رائحة الأطفال وسط الغابة ويبدو على أنهما عازمين على التهامهم.

بدأ الحيوانان الضخمان يدوران حول المغارة ويزأران بشدة أكثر فأكثر، مكشرين عن أنيابهما، وقبل أن يهجما عليهما، وثب الأشبال خارج المغارة وتصدوا للحيوانين لحماية أصدقائهم قائلين:"هؤلاء أصدقاؤنا، ولن نترككما تلتهمانهم، لقد فقدنا أبوينا حينما كنا صغاراً، وبفضلهم عشنا ولولاهم لمتنا جوعا". بسماع هذه الكلمات، هدأ الوحشان ونقصت وتيرة دورانهما حول المغارة وما لبثا أن انصرفا. هنا فقط زال ما كان بالأطفال من خوف وهدأ روعهم. لكن الوحشيْن عادا، فامتلأت أفئدة الإخوة خوفا من جديد، ولكن سرعان ما تلاشى ذلك الخوف حينما رأى الأطفال الحيوانين يجران ثورا ضخما أحدهما، وكبشا سمينا الآخر، ثم طرح الأسد واللبؤة صيديهما أمام الأطفال وقالا: "خذوا هاتين الفريستين وسنسهر على إطعامكم كما سهرتم على إطعام الأشبال الصغار". فعاش الأطفال في هناء وسعادة وتفاهم مع وحوش الغابة وشاركوهم كل شيء حتى الأكل والمأوى.

كبر الأولاد على هذا الحال، وعاشوا حياة متوحشة بحيث لم يكن لهم ألبسة كبني جنسهم، بل كانوا يكتسون جلود الحيوانات التي يأكلونها، وكانوا يكبرون بسرعة حيث أصبحوا أشداء في مدة وجيزة. وذات يوم صيف حار، وجدوا بركة ماء عذب أعجبتهم، فقرروا الاستحمام فيها، فنزعوا جلودهم واستحموا وهم يلعبون بمائها، وعادوا إلى مغارتهم وأصبحوا يرتادون يوميا على بركة الماء العذب للاستحمام.

ذات يوم، كان ثلاثة صيادين في الغابة، وإذا بهم يسمعون أصوات الإخوة السبعة، فاختبئوا ليروا فيما بعد، سبع مخلوقات تمشي كالبشر على قدمين فقط ويكسو أجسامها فروٌ كثيف، ففر صيادان، بينما بقي الثالث مختبئا لشدة فضوله ليرى الإخوة ينزعون فروهم ويستحمون ثم يعودون إلى أعماق الغابة. عاد ذلك الصياد ليراقب هذه المخلوقات لعدة مرات، وكان في كل مرة يحتاط ليختبئ جيدا دون أن يكون في إتجاه هبوب الريح أو النسيم، لكيلا تتمكن المخلوقات من شم رائحته، وتأكد بعد ذلك أن هذه المخلوقات ليست سوى بشرا عاديين.

اتجه الصياد إلى عجوز حكيمة في قريته، ووصف لها ما رآه وأنهم كانوا يتميزون بقوة خارقة وعضلات قوية حينما ينزعون عنهم فراءهم، وأنهم كانوا يتكلمون كالآدميين ويلعبون بالماء، ويبدون سعداء، ففكرت مليا تلك العجوز قبل أن تسأله أن يحاول معرفة مخبأهم وكل شيء عنهم، لأنها لا تستطيع أن تجيبه عن تساؤلاته كونها لم تسمع عن مثل هذا من قبل.

عاد الصياد في الغد واختبأ جيدا وانتظر حتى انتهى الإخوة من الاستحمام وعادوا إلى مغارتهم والصياد يتتبعهم، ثم عاد مسرعا إلى العجوز ليخبرها بكل التفاصيل. فكرت العجوز لمدة طويلة بصمت ثم اهتدت لفكرة قائلة للصياد: "غدا، سأعد غذاء شهيا من كسكس بلحم الخروف الطري المطهي جيدا، وسننتهز فرصة غياب تلك المخلوقات للاستحمام، ونضع الطعام أمام مغارتهم، فإن أكلوا منه فإنهم بشر مثلنا، وإلاّ فهم من الوحوش التي لا تحب إلاّ أكل اللحم النيئ وتفضله على اللحم المطهي".

وبالفعل، نفّذت العجوز خطتها في الغد، واصطحبت ابنتها لتساعدها وكذلك الصياد ليدلها على المغارة ووضعت الطعام اللذيذ أمام المغارة، ثم دخلوا يتفحصون المغارة فوجدوا جدرانها مطلية كالفخار، ووجدوا سبعة أسرة خشبية، ثم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم قبل عودة أصحاب المغارة.

وبعودة الإخوة السبعة، اندهشوا لوجود ذلك الطعام على عتبة مغارتهم، فألقوا ما كان بأيديهم من صيد كانوا قد تعبوا كثيرا في اصطياده، وراحوا يأكلون بشهية ويتلذذون بالطعام الذي وجدوه أمام مغارتهم دون أن يدركوا من أحضره إليهم، ولكنهم بتذوقهم للحم المطهي، أحسوا بأنهم أصبحوا ينفرون ولا يودون أكل اللحم النيئ (لحم الصيد) الذي ألفوه سابقاً.

في الغد من ذلك، وحين همّ الإخوة بالذهاب إلى الاستحمام على عادتهم، قرّر أخوهم الأصغر البقاء في المغارة لمعرفة من أحضر لهم ذلك الطعام، فربما عاد ليأخذ أوانيه. اختبأ الأخ الأصغر جيدا وذهب إخوته للاستحمام، وعادت العجوز وابنتها والصياد إلى المغارة وأحضروا معهم طعاما شهيا وغالبيته من لحم مطهي لذيذ، ولما دخلوا إلى المغارة، اندهشوا باكتشافهم أوانيهم فارغة مما كان فيها من طعام ومغسولة ونظيفة ومصففة، ووجدوا صحنا كبيرا به قطع من الذهب الخالص، هنا صاحت الفتاة: "ما أجمل هذا الذهب !!" وحملت قطعا منه، ففقز الأخ الأصغر بسرعة البرق وأمسك بيدها قائلا:"من أنت؟"، فارتعدت فرائص الفتاة خوفا وصاحت "أرجوك، أطلق سراحي، أنا لا أريد أخذ هذا الكنز، أرجوك !!". هنا أجابها الفتى: "لا تخافي، أنا لن أؤذيك ولم يكن لدي نية إيذاءك". ثم تقدم الفتى بعدما

هدأ روع الفتاة وأمها والصياد وقدم لهم كل الذهب الذي كان في الصحن وأوصلهم إلى باب المغارة وتركهم يعودون إلى القرية فرحين مطمئنين.

بعدما أعجب الصياد بشهامة ذلك الفتى، طلب من العجوز قائلا: "أرجوك، أخبريني كيف يمكنني أن أجعل هؤلاء الخلق يأتون إلى منزلي ويعيشون معي كإخوة لي". أجابت العجوز قائلة: "ستساعدني ابنتي في نسج أثواب لهم ثم نذهب وننتظرهم عند البركة وتحفر أنت حفرة لتختبئ فيها بالقرب من المكان الذي يضعون فيه فراءهم، وحينما ينزعونها، وحين تسنح الفرصة، تخرج أنت من الحفرة لتسرق فراءهم وتعود بها إلى القرية، ثم أحضر لهم أنا الملابس المنسوجة التي كنا قد أعددناها".

اتفق الصياد مع العجوز وابنتها على الخطة، وشرعت العجوز وابنتها في نسج الأثواب الجديدة بعد إحضارهم ما يكفيهم من الصوف، وحين تم الانتهاء من نسج الثياب، ذهب الصياد إلى البركة وحفر خندقا صغيرا، بالقرب من المكان المعتاد أين يضع الشبان فراءهم، ثم ستر الخندق بفروع الأشجار والحشيش حتى تبدو الأرض مستوية وعادية، ثم اختبأ بداخل الخندق منتظرا قدوم الإخوة السبعة.

وبعد ساعات انتظار، قدم الإخوة إلى البركة للاستحمام كعادتهم، ونزعوا فراءهم وطرحوها أرضا بالقرب من خندق الصياد، وذهبوا يستحمون ويلعبون بالماء غير مدركين وجود الصياد الذي انتهز فرصة غفلتهم، واستولى على كل فرائهم وولّى هاربا بها نحو القرية مسرعاً، فانتبه لذلك الإخوة، فنادوا عليه وتوسلوا إليه أن يعيد إليهم فراءهم، وقال أصغرهم : "إننا لا يمكننا الخروج من البركة بدون فرائنا، أعدها إلينا، أرجوك، أتوسل إليك، ليس لدينا ما نلبسه سواها"، لكن الصياد واصل العدو غير آبه بتوسلاتهم، ولحق به الإخوة السبعة محاولين ستر أنفسهم بالأوراق والحشائش ومختفين وراء الأشجار، وهم يتوسلون إليه ويترجونه بأعلى أصواتهم.

وحين وصل الصياد إلى القرية وبقي الإخوة السبعة على مشارفها، ألقى بالفراء داخل بيت العجوز واستخرج الثياب الصوفية التي نسجتها العجوز وابنتها وذهب بها إلى مشارف القرية أين كان يتواجد الإخوة السبعة مختبئين وراء الأشجار لفرط حيائهم، فكلمهم أخيرا قائلا: "أنتم بشر مثلنا تماما، لماذا تصرون على لبس مثل هذه الفراء وكأنكم وحوش وتريدون البقاء دوما في الغابة، البسوا هذه الثياب فإنها أحسن من فرائكم وأليق بكم، لا تعودوا إلى الغابة، وابقوا معي هنا لتعيشوا وسطنا لأنكم منا، كونوا لي كإخوة، ها كم هذه الثياب، جربوها وسترون أنها أنسب لكم"، ثم رماها إليهم، فأخذها الإخوة كلهم ولبسوها فبدوا في كامل الأناقة والجمال ومدحهم الصياد مشجعا: "تبدون أليق وأقوى الرجال، مرحبا بكم بيننا". وبذلك، أقام الإخوة السبعة عند ذلك الصياد في بيته، ومكثوا في تلك القرية، وكانوا أول الملوك الذين عرفهم سكان تلك القرية لشدة شجاعتهم وقوتهم وشهامتهم، وأطلق الناس عليهم اسم "الملوك الذين ولدتهم المغارة"، وحكموا الناس بعدل، وإنصاف، وسياسة حكيمة، ونصروا الضعفاء، وقاوموا الأشرار، وخلف بعدهم رجال صالحون تحلوا بأخلاقهم وعملوا على نشر الأمن والأمان كما فعل "الملوك الذين ولدتهم المغارة".